فتقبّلن مني الذبيحة عن رضى لا من عجولٍ او كبوش تقادمِ
لكنّها قلبٌ وضيعٌ خاشعٌ قد طالما أذللتهُ بملاومي
ولقد وعدتَ وانت اصدق واعدٍ بقبولهِ فافعل لفيض مكارمِ
ولتشكرنْ نفسي وقلبي مع فمي شكرًا يلاقي منك بحر مراحمِ
ومعي تسبّحك الخلائق كلها حمدًا لصفحكَ عن جميع مآثمي

قلعة بعلبكّ وحفريّات الالمان فيها

لجناب الاثري ميخائيل افندي موسى الوف (تتمة)

والى جنوبي هيكل جوبيتر الشمسي هيكل آخر اصغر من ذاك مبنيٌّ على دكّة واطئة وليس امامهُ بهو ولا رواق وقد كنّا مع كثير من الكتّاب ندعوه بهيكل جوبيتر وانّما رجال البعثة الالمانية يرون بانهُ كان مكرّسًا لباخوس اله السكر لما على باب هذا الهيكل من نقوش العنب وهي من شارات باخوس. وقد وجدوا ايضًا نقوشًا بديعة على وجه المذابح التي كانت امام المقدس في الداخل تمثّل راقصات باخوس المشهورات تتخلّلهنّ عرائش العنب فاستدلّ حضرة المهندسين بذلك على انهُ هيكل باخوس

وقد كانت الدكّة التي تحمل الهيكل وعمدهُ الخارجية مطمورةً فكشفها الالمان تمامًا وهي مبنية بحجارة ضخمة بغاية الضبط والاتقان في التحام الاحجار على بعضها ولها إفريزان من اسفل ومن فوق ويعلوها الهيكل وهو أجود الآثار حفظًا يفوق في اتقانهِ وشغلهِ جميع الهياكل الباقية من عصر الرومان في المعمور كله. وقد كان يحيط بهِ خمسون عمودًا طول الواحد منها ١٨ مترًا ودائرته ستة امتار وهو مركب من ثلاث قطع ما عدا تاجهُ وقاعدتهُ. وهذه الاعمدة اصغر بقليل من عواميد هيكل جوبيتر السالف الذكر وبينها وبين جدار الهيكل فسحةٌ تبلغ ثلاثة امتار ويصل بين العمد والحائط فوق تيجان العواميد الواح حجريّة هائلة في الكبر ومغشّاة بنقوش بديعة وعليها صور عدد عديد من الآلهة التي كان يعبدها اليونان والرومان ولم يزل قسم كبير من هذه السقوف محفوظًا في محلّهِ وما سقط منها وجدهُ الالمان وصفّوهُ امام الجدران

وامام باب الهيكل كانت فسحة كبيرة يتقدّمها درج عظيم بثلاث بسطات وبعده كان صفّان من العمد المضلّعة التي سقطت واستُخدمت انقاضها . وبعد العمد الفسحة التي نوّهنا بها ثمّ الباب الكبير الذي كان ولم يزل آيةً في العظمة والنفاسة ودقّة الصنعة واحكام النقوش . وقد كان قبل الحفر مطمورًا الى نصفه . وعتبتهُ العليا مركبة من ثلاثة احجار سقط الاوسط منها بفعل الزلزلة وقوة الثقل نحو مترين حتى صار يُخشى سقوطه تمامًا وانهدام الباب كله . فتداركت الحكومة السنيّة امرهُ منذ ثلاثين سنة وبنت تحتهُ دعامة وقتهُ من السقوط ولكنّ الالمان تمكنوا من رفعه الى حيث كان حتى ساوى الحجرين اللذين كانا على جانبيه وثبّتوه معهما بالترابة النارية والكلس الماني والرمل واظهروا الصورة المنقوشة عليه التي كانت تخفيها الدعامة وهي تمثل نسر المريخ حاملًا بمخلبيه قضيبًا ذا جناحين يلتفّ حولهُ حيّتان وذلك ما يدعونهُ الكادوسة (caducée) وهو رمز التجارة التي يحميها المريخ . وعلى جانبي النسر ملاك من كل جهة حاملٌ بينهُ وبين النسر غصنًا من الاشجار فيه ورق وثمار وهذه الصورة تشير الى ما كانت عليه المدينة من سعة التجارة ووفرة الغنى

ثم فتح الالمان الباب الى عتبته السفلى فظهرت نقوشه البديعة وقد صانها من الدمار ما سقط عليها من الأتربة وانقاض الابنية العربيّة التي كانت امام الباب . وهذه النقوش تحيط بالباب على عرض ٧٥ سنتيمترًا فاولها « المطمّح » ثم خط من اوراق مختلفة ثم حبّ اللؤلؤ ثم البيض والنبال ثم حبّ اللؤلؤ ثم ساقية مرسوم فيها عريشتان من العنب والواحدة منهما ممرّشة على الاخرى وبينهما آلهة الحبّ وكوپيدون والفون (faunes) والحمام وغيرها وكأنها تحمل عناقيد العنب . وبعد ذلك سلسلة محبوكة ثم ساقية تمثل عشًا بديعًا يتخلّلهُ الخشخاش وسنابل القمح وفوق العتبة العليا ما ذُكر من النقوش ثم افريز مغشّى بافخر الرسوم وصور السباع واكثرها مهشّمة . وعلو هذا الباب ١٤ مترًا وعرضهُ ٦ امتار والى جانبيه بابان صغيران يُصعد منهما الى لولبين يؤديان الى سطح الهيكل . وفوق عتبة هذين البابين نقوش دقيقة الصنع عُدَّ من ادق الرسوم الموجودة في القلعة وبينها صورة عريشة صغيرة تتدلّى الى كأس يحملهُ حيوانات واوراق العريشة على صغرها محكمة الرسم حتى ان الضلوع الصغيرة ظاهرة فيها

وطول الهيكل من داخله من الشرق الى الغرب خمسة وثلاثون مترًا وعرضه

عشرون. فتلاه الادنيان كانا لوقوف الشعب وهما مزيّنان من الجانبين بعمد مضلعة بارزة من الجدران وبينها قواعد الاصنام وفوق رؤوس الاصنام على موازاة تيجان العمد واجهاتٌ مثلثة الشكل وجميع ذلك مزيّن بنقوش مختلفة دقيقة الصنع وفوقها كلها افريز بديع يحيط بالهيكل كله من الداخل. وثلث الهيكل الأقصى وهو المقدس مبني على ارتفاع اربعة امتار عن باقي الهيكل وامامهُ كلّه درج ببسطتين. وقد كشف الالمان الدرج المذكور وكان من قبل مطموراً وفوق البسطة الاولى عمودان كبيران مضلّعان يبعد الواحد منهما عن الحائط نحو المترين ومن منتصفه الى الحائط بقية قنطرة مزيّنة بنقوش البلوط واوراقه وبين العمودين والى جانب كل منهما مذبح غُشّي وجههُ بصور راقصات باخوس وهنّ متفنّنات برقصهنّ. وبين المذبحين تكملة الدرج الى داخل المقدس وامام المذبحين على الدرج الاسفل درابزينان من الحجر ينتهيان في اسفل الدرج بركيزتين مربّعتين تمثلان على اوجه الحجر الثلاثة الرقص القبيح المعروف حتى يومنا هذا في مصر برقص البطن. وقد وجد الالمان ركيزة واحدة منهما فوضعوها في مكانها

وقد نظف المهندسون كلّ المقدس فظهرت آثار في وسطه بجانب الحائط تدل على المرتكز الذي كان عليه الصنم الكبير وكان ذا درجات اربع ولم يبقَ منهُ شيء يُذكر

ومن الآثار المسيحية في هذا الهيكل رسم صليب يوناني تحت قاعدة عمود مضلع في الجدار الجنوبي. ولذا يقال بانهُ حُوّل في زمن ثيودوسيوس او خلفائه الى كنيسة. واما العرب فبنوا في وسطه ثلاثة اقبية لم يُعلم الغرض منها وقد هدمها الالمان ليُظهروا الهيكل على منظرهِ القديم

*

وكانَ العرب لمّا استولوا على بعلبك لم يُحجموا رهبةً عند مشاهدتهم هذه الابنية العظيمة الباذخة فوطّنوا النفس على مباراة الأقدمين بتشييد قلعة مهيبة البنيان ثابتة الاركان لا تقلُّ عظمةً وقوّة عمّا سلف من البناء القديم. وحقيقةً ان الحفريات الالمانيّة كشفت عن جميع مشتملات القلعة العربيّة واظهرت ظهوراً واضحاً جسامة بنائها وادلّة قوتها ومنعتها. نعم ان العرب قد استخدموا حجارة الهياكل القديمة لكنّهم لم يهشّموها بل بنوا بالحجر الضخم والدقة التامة وقد رفعوا الأثقال وموادّ البناء الى ارتفاع شاهق حتى انّهم زادوا على علوّ الهياكل علواً آخر. ومعظم هذه التحصينات ينتهي

عهد بنائه الى السلطان صلاح الدين الايوبي وخلفائه بدليل الكتابات الموجودة على الجدران من الملك الامجد بهرام شاه ابن اخي السلطان صلاح الدين ومنها للسلطان قلاون ولابنه الملك الصالح محمد وللسلطان الظاهر برقوق وغيرهم . ولم تظهر كتابات تدل على ان هذه القلعة اقدم من هذا العهد لولا انَّ التاريخ ينبئنا عن بعض حوادث حربيَّة جرت فيها على عهد بني طغتكين وأيام الاتابك عماد الدين زنكي وذلك قبل تملك السلطان صلاح الدين يوسف . فلا يبعد بان العرب الاوَّلين حصَّنوا الهياكل ومدُّوا سور البلد الروماني اليها واكملوه الى الاحاطة بالبلد منها ثم زاد الايوبيون وسلاطين مصر من المماليك في تحصيناتها ونقشوا اسماءهم على جدرانها

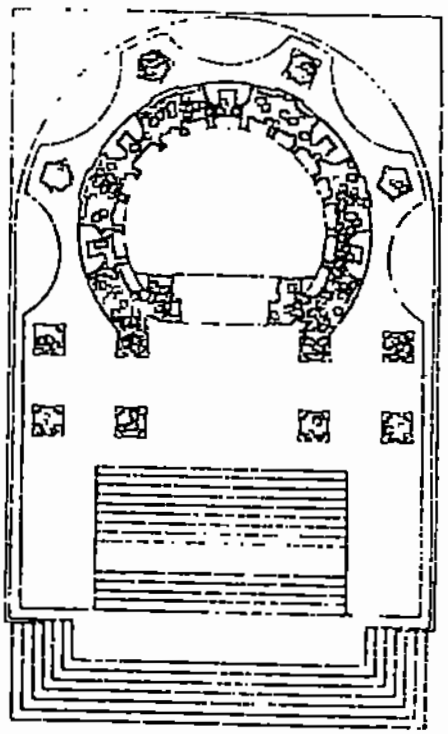

وقد نظف المهندسون باب القلعة الغربي وهو على الزاوية القبلية الغربيَّة وكشفوا ما وراءهُ من الأقبية والتماريج حتى يصل الداخل الى باب ثانٍ ثم الى باب ثالث لتزيد العقبات في وجه العدوّ قبل ان يظفر بالقلعة . وبعد الباب الثالث يمشى معقود وراء

هيكل باخوس يتصل بابنية السكن في البهو الكبير وما كان منهُ وراء الهيكل المذكور قد تهدَّم وظهر تحت انقاض الاعمدة المتساقطة عليه . وغربي هذا المشى وجدوا آثار جامع مبني بالركائز المربعة وفي صحنهِ بحرةٌ مدوَّرة وامامهـا الخراب وقد كان مع الجدران مغشًّى بالفسيفساء الملوَّنة التي لم يبقَ منها غير اثر التصاقها بالكلس على الجدران . وكان هذا الجامع يُدعى بجامع ابراهيم الخليل بدليل ما ذكرهُ ابو زكريَّا القزويني في آثار البلدان وما وجده الالمان من آيةٍ منقوش عليها « وقف على جامع سيدنا ابرهيم الخليل في قلعة محروسة بعلبك » ووراء الجامع للغرب ايضاً برجٌ بثلاثة طوابق وسرام للسهام يتصل من جهة باب القلعة ومن الجهة الاخرى بسورهـا المبني بثلاثة طوابق ايضاً من القناطر وفيها مرامي النبال وهذا السور يحيط بالهياكل كلها على اربع جهاتهـا والقسم الاكبر منهُ مبنيٌّ فوق البناء الروماني القديم تارةً على قواعد عمد هيكل جوبيتر الشمسي وطوراً فوق معابد البهو الكبير والمسدس والرواق المقدَّم الى ان يبلغ امام هيكل باخوس حيث تراهُ مبنيًّا على درجهِ العظيم ومنتهياً ببرج كبير مشيَّد على طرف الدرج بثلاثة طوابق ويتَّصل اعلاه بالتحصينات المشادة فوق عمد هيكل باخوس الخارجيَّة وهذه تنتهي الى باب القلعة الذي ذكرناهُ قبلًا

ويتخلَّل هذه التحصينات مماشٍ معقودةٌ سقوفهـا ودهاليز واروقة وثكنات واسطبلات وما المعنا اليهِ من بيوت السكن والاقران والحمامات والابار وغير ذلك وجميعها من اكتشافات الالمان

وحريٌّ بالذكر البئر التي وجدوهـا بين جدار القبو القبلي ودكة هيكل باخوس مما يلي الدرج ويبلغ عمقها نحو الخمسة والاربعين متراً واكثرها منقور بالصخر الاصمّ . وقد تركتُ فيها لعلّي أجد دليلًا يحقّق لي ما ذكرهُ ابن شدَّاد والدمشقي في تواريخهما عن بئر يدعوانها بئر الرحمة وهما يزعمان بانَّ المياه تفيض منها حين وقوع القلعة في خطر وفي أبان الحصار وتفيض لمَّا ينكشف العدو ويعود الامن فوجدتُها تنبع الماء من اسفلها في ايَّام الربيع والصيف فقط . ومن المحتمل انَّها هي بئر الرحمة ولعلَّ الماء كان يتسرَّب اليها في زمن الحصار من خنادق القلعة المحيطة بها من الخارج والتي كانوا يملأونها ماء وقتئذٍ ليمنعوا العدو عن الاقتراب من الجدران فان بين البئر وبين الخندق الخارجي نحو ثمانية امتار فقط ولكن المهندسين يرتأون بان قناةً كانت تتصل ببئر الرحمة وان الماء كان يجري اليها

بمعرفة حاكم القلعة فقط فيدير الماء منها الى البئر في زمن المخافة ويقطعه في ايام السلم

وقد عهدت اللجنة درس جميع الآثار العربية ورسمها للمهندس هنري كول احد اعضائها الذي قدم بعد سنة من ابتداء الحفر

وممّا وجد الالمان في اثناء الحفر شيء كثير من بقايا الاواني الزجاجيّة والقيشاني الملوّن والفسيفساء والفخّار واكثرها من صنع العرب. ووجدوا جملة آثار بيزنطية عليها الصلبان وبعض النقود النحاسية من ايام الدولة الرومانية الشرقيّة ونقودًا كثيرة عربيّة وسيوفًا ومعاول وهواوين وصحونًا وملاعق واجرانًا وقنانيَ كانت تُخزَن فيها المادة التي يركّبون منها النار اليونانية. ووجدوا كمّيّةً من النبال وعددًا كبيرًا من الكلل الحجريّة التي كانوا يرمون بها العدوّ او يهدمون الجدران. ووجدوا عددًا من رؤوس السباع والعجول التي كانت تزيّن افريز العمد الكبيرة امّا الاصنام فلم يعثروا على شيء يُذكر من بقاياها لانها كُسرت وحرقت بامر قسطنطين وخلفائه غير انهم اكتشفوا على كثير من الكتابات اليونانيّة واللاتينية واكثرها مهشّم واتّما بينها كتابات كاملة وذات فائدة جزيلة وكلها من بعد المسيح. ولم يجدوا في داخل القلعة كتابات عربية سوى ثلاث رُسمت باخط الكوفي وعثروا في خارج القلعة على السور وفي الخنادق على كتابات اخرى وقد عُهد جمعُها الى الدكتور سوبرنيهم واني اجتمعت به اقراءتها باحكام وضبط ولنسخها مع جميع الكتابات العربية الموجودة في الجوامع والاسوار. ومع صعوبة قراءتها لقدم عهدها وطموسها توفقنا لجمع نحو اربعين كتابة وفكّ رموزها وهي ستنشر بحروفها وتفسير معمّياتها بالتاريخ الذي ستُعنى بنشره اللجنة المشار اليها

*

ثمّ انّ في طرف المدينة قبليّ القلعة وعلى بعد نحو مئتي متر منها هيكلًا جميلًا صغيرًا مستدير الشكل تحيط به ستة اعمدة يضمها الى الحائط افريز جميل محصور بين كل عمود وثانيه وقد بقي منها اربعة فقط. وقد دعوناه هيكل الزهرة لقيامه على شاطئ نهر المدينة ولان التاريخ يذكر وجود هيكل لإلهة العشق كان يرتكب فيه البعلبكيون الموبقات ويقدمون بناتهم العذارى لخدمة تلك الالهة وصورة الزهرة مرسومة على حنية موقف صنم في خارج الهيكل وهي بارزة من صدفة والى جانبها ملاكا الحبّ. فلمّا نشأ الدين المسيحي في بعلبك واعتزّ شأنهُ بالملك قسطنطين حوّلهُ المسيحيون الى كنيسة

خصُّوها بذكر بربارة الشهيدة شفيعة المدينة . فان من تقليدات الاهلين انَّ هـذه الشهيدة ولدت في بعلبك وبها استشهدت . وبقي الهيكل في يد المسيحيين الى اواسط القرن الثامن عشر يؤدُّون فيهِ فروضهم الدينية حتى خربت المدينة بالزلزلة وبمظالم الامراء المتاولة بني الحرفوش فاهملوه وتركوا بيوتهم التي كانت في ذلك الجانب وعمَّروا غيرها حيث ترى محلتهم الآن وبنوا هناك كنيسةً أُخرى وكرَّسوها للبربارة كما كانت تلك . وقد حقَّق لي والدي الذي كان شيخًا معمَّرًا والمرحوم حبيب باشا المطران وغيرهما من الثقات صحَّة هذا التغيير الذي طرأ على المدينة بامر بني الحرفوش وكيف خلت اكثر الاحياء من اهاليها وانفرد المسيحيُّون في قسم خاص من البلدة . ومما ذكر السائحان جيرو وسونه لمَّا زارا بعلبك في سنة ١٧٠٥ ان هذا الهيكل المستدير كان كنيسة الروم على عهدهما . ووجده ود (Wood) سنة ١٧٥١ كذلك . فما ذكرناهُ من تحوُّل المسيحيين الى محلَّتهم الحاليَّة حدث في اواخر القرن الثامن عشر وليس قبلًا . ولم يزل على جدران الهيكل كثير من الرسوم المسيحيَّة كالصلبان ومحل ايقونة على الباب وفي داخلهِ صليب مرسوم باللَّون الاحمر ضمن دائرة الى جانبها شعار قسطنطين « بهذه العلامة تنتصر »

ولمَّا كان هذا الهيكل مبنيًا على دكَّة طرحتهـا تقلُّبات الاحوال على المدينة وما سقط عليها من انقاض الابنية التي أُحدثت حوله سعى الالمان واشتروا هذه الابنيـة وهدموها ورفعوا الاتربة التي تطمر الدكة فظهرت كاتصاف دائرة تحت العمد ووجدوا امام الهيكل درجهُ الكبير وهو ذو ثلاث بسطات وفوقهُ امام الباب كان اربعة من الاعمدة على خطٍّ مستقيم ولم يبقَ منها غير قواعدها ووجدوا خارج الهيكل تمثالًا للشمس سقط من احدى القواعد وهو بصورة امرأة عليهـا جلباب رومانيٌّ ومن وراء رأسها الاشعَّة الشمسيـة ووجدوا داخل الهيكل مدفنًا للكهنة المسيحيين وقد كان تحت المذبح الدائرة آثاره

ومما يذكر ان جميع الادراج التي وجدت في هياكل القلعة وفي هيكل الزهرة هذا تُعدّ درجاتها بين البسطات بالعدد الفرد فقط فمنها بثلاث درجات ومنها بخمس ومنها بسبع وبتسع وباحدى عشرة وبثلاث عشر درجة وذلك يؤيد ما أكَّدهُ لي احد العلماء الاميركان بان القدماء كانوا يبنون الادراج هكذا حتى يبتدئوا بدوس الدرج بالرجل اليمنى وينتهوا بها ايضًا وان ذلك من وساوسهم الدينية

ووجد الالمان بعض الآثار القديمة على جبل الشيخ عبد الله فوق محلة المسيحيين فنقبوا عنها واثبتوا ان هيكلاً صغيراً شُيّد على ذلك المرتفع وكان مزيناً بالاعمدة الصغيرة ذات الثمانية امتار طولاً وكان امامهُ درج منقور بالصخر الاصم. وقد استُخدمت حجارة هذا الهيكل لبناء السور العربي المقام هناك

وبحث المهندسون ايضاً عن القناة التي كانت تأتي بالمياه من نبع اللجوج شرقي البلد الى الهياكل فحفروا قرب النبع وفي القناة الرومانية المحفوظة آثارها فوجدوا صنم جوبيتر الشمسي الذي وصفناهُ قبلاً ووجدوا اعمدة مضلعة على شكل حلزوني لها تيجان شبيهة بالطرز الكورنتي وقواعد ذات مثال غريب عن المثال اليوناني مما لم يُشاهَد مثلهُ الى اليوم. ووجدوا ايضاً من التعاويذ الرصاصية المصبوبة على مثال جوبيتر بعلبك. واذ كانت قناة الماء الرومانية محفوظاً بناؤها الى اليوم تتبّعوا آثارها حتى وجدوا حوضها الكبير على بعد كيلومتر ونصف عن المدينة ومن هناك تجري المياه في شعبتين فالكبرى تسيل الى المدينة حتى الحيّ العالي المعروف بحي بيت صُلّح وهناك مقسمها منقور بالصخر الاصم ومنهُ تتفرق المياه بالاقنية الى الهياكل والى المدينة. والشعبة الصغرى تجري من الحوض وتمرّ بالمدافن القديمة وتتوزع خارج المدينة حيث البساتين اليوم

ولكي يتحقق المهندسون باكثر جلاء ووضوح تاريخ هياكل بعلبك ومكانها من الهندسة طافوا البلاد البقاعية وشاهدوا آثارها وأخربتها القديمة كلها وزاروا اكثر الهياكل الموجودة في سورية ولبنان وتدمر وحوران ليقرّروا ما كان بينها وبين هياكل بعلبك من العلاقة من حيث الدين وزمن البناء والهندسة

ولا نشك بانهُ سيكون لابحاث هؤلاء العلماء صدى استحسان لدى المتمعنين في تاريخ تمدُّن الامم والمنقبين عمّا طوته طوارئ العصور من اسرارهم فانهم يأتون في تقريرهم بالقول الفصل عن قدم بعلبك ويزيلون بما وجدوهُ من الكتابات وما تقصّوه من البحث الشبهة عن طريقة البناء وعن زمن نشأة الهياكل ومكانها من الشهرة والاعتبار في البلاد السورية والفينيقية ويثلون بما وضعوه من الرسوم البالغة حد الاعجاز في الاتقان فخامةً ونفاسةً هذه الهياكل في أبان زهوها وعمرانها فينالون ما استحقوه من الثناء بنصبهم واجتهادهم ويتركون لهم ذكرًا يخلد فضلهم ويبثّ محاسن علمهم